

نحو فلسفة جديدة لكتابة تاريخ إفريقيا الإسلامي كردفان نموذجا

د. ابن عمر عمر عبيدالله¹

مستخلص

تهدف هذه الورقة إلى لفت الانتباه إلى ضرورة الاهتمام بالتقاليد الشفاهية في كتابة التاريخ الإسلامي في المجتمعات الإفريقية مع الاستفادة من مناهج العلوم الحديثة في علم الاجتماع والفولكلور والأنثروبولوجي ، وذلك للأسهام في كتابة تاريخ اجتماعي يساهم في بناء جذور التكامل والتواصل وتمتين أواصر النسيج الاجتماعي في المجتمعات الإفريقية . وفي هذه الحالة المجتمع الكردفاني المعاصر مع الرؤية النقدية لما كتبه الأجانب عن إنسان وجماعات وعرقية هذه المنطقة .

Abstract

This paper aimed to draw the attention to the importance of the Oral tradition in writing Islamic History in African communities, together with the benefit from Modern Science methodology in sociology, Folklore and anthropology so as to contribute to writing social History, as well as building the bridge of integration and communication and reinforce social relationship within the African communities, The this case of contemporary Kordofan community, critical visions were compared with other foreign works about Man and ethnical communities of this area.

تقديم

هنالك علاقة بين التاريخ الاجتماعي والشفاهي، لأن التاريخ الاجتماعي موجود في صدور الناس، وبه قصور كبير لم يكشف بعد⁽¹⁾ ويمكن القول إن تاريخ المجتمعات

¹ كلية التربية - قسم التاريخ ، جامعة كردفان

والذهنيات لم يحظ بمكانة في الدراسات التاريخية الخاصة (بالسودان) رغم المكانة التي أصبح يحتلها في خريطة المناهج المعاصرة ولا غرو فإن الموضوع عد من اختصاص الاجتماعيين والانتروبولوجيين أكثر من المؤرخين بينما هو في واقع الأمر عطاء صادق وانعكاس جيد لأرضية تاريخية تجعل منه حقلا خصبا للبحث التاريخي وموضوعا في أمس الحاجة إلى الاستقصاء والبحث من وجهة نظر المؤرخ ومن نافلة القول إن معظم الدراسات الغربية فتنت بسحر التاريخ السياسي وأحداثه المدوية " فقتلته " بحثا كما لم يبخل أصحابها - رغم شموخ أعمالهم - بالافتراء على هذا التاريخ وتلوينه بخلفيات سياسية وايدوبولوجية وكرد على هذا الاتجاه انصب اهتمام المدرسة الإسلامية على مقارعة التخريجات الأجنبية ودحض أباطيلها ومزاعمها المحبوكة لتطهيره مما شابهه من تحريفات تنطق بالحقد والتعصب ولكنها انجرفت - دون أن تعي - في تيار التاريخ السياسي (2).

ولذلك فإن المهتمين بالتاريخ الاجتماعي يعرفون أن طبقات العوام لم تتل كل ما تستحقه من الاهتمام ولا يمكن تكوين تصور متكامل عن عديد من قضايا الماضي الإسلامي دون استدراك ذلك (3). إذ إن التاريخ تاريخان تاريخ الدولة ومؤسساتها وسجلاتها ودواوينها ، وتاريخ العامة وذاكرتهم وحكاياتهم (4) وتبرز الممارسة العلمية التاريخية المعاصرة باعتبارها بحثا عن نظام فهم يسعى إلى تأمين تصور عقلي للماضي والمقصود تقديم الماضي في خطاب يجعله معقولا (5) والمؤرخ يعلم أن القراءة التي يقدمها عن مرحلة معينة ليست نهائية وأنه لايقول كل شيء . غير أن بحثه يشكل خطوة إلى الأمام في التعرف على الماضي لأنه أخذ في الحسبان أعمال المؤرخين السابقين و غربل النتائج التي حصل عليها وآل على نفسه أن يبرز التفسيرات الجديدة التي يعرضها إن عمل التاريخ هو تقديم للماضي متصل ومعمق وموسع دونما انقطاع (6).

ويظهر مجال البحث الميداني في التاريخ الشفاهي في التركيز على تسجيل السير وتاريخ الأشخاص والتغيرات التي طرأت على العقائد وطرق الحياة (7) من الرواة - الإخباريين - لأن وظيفة الذاكرة عند أحمدو همباتي با اقوي لدى المجتمعات الشفاهية وفيها تكون العلاقة بين الإنسان والكلمة أشد فحيث لا كتابة يقيّد الإنسان باللفظ وبه يلتزم فهو كلمته ، وكلمته تشهد عما هو وترابط المجتمع نفسير تركز على قيمة الكلمة وعلى مدى احترامها لأن الإشكالية

كلها تمثلت لدى بعض الباحثين في معرفة هل يمكن ان نمنح النقل الشفاهي عين الثقة التي نمنحها للنقل الكتابي ليكون شاهدا على الماضي وعرض المشكل بهذه الصفة أسبباً وضعه فالشاهد الكتابي والشفاهي ما هو في النهاية سوى شاهد بشري وقيمه هي قيمة الإنسان أو لم تكن الشفاهية أم الكتابية خلال العصور كما هو الأمر في الفرد نفسه إن أول الوثائق أو الخزانات - المكتبات في العالم كانت أدمغة الرجال (8) أما في الغرب فإن المؤرخين لا يعترفون إلا بالوثائق المكتوبة ، أما الوثائق المروية فلا يعترفون بها مع أن المؤرخ نفسه لا يلاحظ الظواهر التي يريدونها إنما يعتمد إما على السماع من شهود العيان الذين عاصروا الأحداث التي يدرسونها وشاهدوها أو على النقل من الوثائق التي دونها أشخاص رأوا الأحداث التاريخية أو سمعوا بها عن قرب . مع أن جان فانسن في أبحاثه عام 1950م قد اهتم كل الاهتمام بالتقاليد المروية ومشاكلها وتبعه في ذلك الباحثون المنتبئون في إفريقيا وطريقته في التقاليد المروية تحتم على الباحث أن يتفهم عن كثب المجتمع الذي يبحثه (9) وحسب - فانسن - فإن المأثور يجدد بكونه شاهدا سلمه شفاها جيل إلى جيل عبر سطحه الاجتماعي فلولا سطحه الاجتماعي لانقطع المأثور عن الانتقال وأصبح غير ذي وظيفة فيفقد مبرر وجوده وتهمله المؤسسة (10) كما سبق لعبده كاسوزي في كتابه - انتشار الإسلام في يوغندا - استخدام المعلومات الشفاهية بكثافة معتبرا إياها براهين أساسية واستفاد من الأدلة المأخوذة من الذاكرة من رجال شاركوا في الأحداث مباشرة أو أخبرهم بها شهود عيان كما قام بتكليف آخرين بجمعها عبر الصداقة أو المال وقد سبقه في ذلك كما هو معلوم فانسينا في كتابه التراث الشفاهي (1965 م) وماكول في كتابه (إفريقيا من منظور الوقت) وقد أشار كلاهما إلى أن المصادر الشفاهية تحتوي على كثير من المثالب مثل النسيان وصعوبة تسجيل أكبر قدر من التراث الشفاهي (11) وذلك لحجم الإقليم - كردفان مثلا - وصعوبات السفر وبذلك يكون قد تم تسجيل جزء قليل من الموروث الشفاهي المحتمل وقد استفاد منها أوفاهي في تسجيل تاريخ دارفور (12)

ويرى البروفيسور سيد حامد حريز أن بعض أشكال التراث الشفاهي المحلي مثل شبكة للاتصال الوجداني والروحي بين المجموعات الإفريقية المسلمة وبالتالي فهي تصلح ليس فقط كأرضية طيبة للاتصال الديني والعمل الدعوي الإسلامي بل كجسر للتواصل الاجتماعي

ابن عمر عمر عبيد الله نحو فلسفة جديدة لكتابة تاريخ إفريقيا
والسياسي بين قطاعات كبيرة من المسلمين في إفريقيا على نحو ماتمثلة السير والحكايات
الشفاهية الإفريقية التي تدور حول شخصية الحكيم الغريب الذي تعتبره العديد من الجماعات
الإفريقية بمثابة الجد الأول لها (13).

ويلاحظ الاهتمام في التاريخ الشفاهي بنقل الخبر عن شاهد عيان مشارك بالحادثة أو
عن طريق آخرين نقلوا عنه والأول منهج معتبر في الدراسات التاريخية المعاصرة كما أنه
معتبر في الدراسات الحديثة في القرون الهجرية الأولى ويلاحظ أن الإمام البخاري في
صحيحه كثيرا ما يختار الرواية عن طريق الصحابي المشارك بالحادثة كما فعل في سبب
نزول سورة الجمعة عن جابر بن عبد الله الأنصاري وقصة نزول سورة التحريم عن عائشة
فشاهد العيان أدق رواية إذ تشترك الحواس العديدة من العين والسمع واللمس في ضبط
الخبر ... وهذا أقوى من النقل بواسطة السمع فقط كما يحدث عندما يغيب عن الرواية شاهد
العيان (14).

ويرى (فانسينا) أن الشهادات - الإفادات - الشفهية والتي تصدر عن شاهد عيان لها
قيمة كبرى فهي مصدر مباشر غير منقول يقل فيه خطر تحريف محتواه وكل مأثور منقول
لابد أن يرجع إلى شاهد عيان كما أن الشائعات التي هي نقل لخبر - يجب تركها - لأن
طابعها الخاص هو أنها تعالج "الاصداء الجارية" - ولذا فهي تدعى في يومنا هذا إذاعة
الرصيف "ويدخلها من التحريف ما يجعلها لا تصلح إلا للتعبير عن رد الفعل الشعبي إزاء
حدث معين وهي عينا قد تولد تراثا إذا ما روتها الأجيال التالية (15).

إن الدراسات الميدانية التاريخية في كردفان عليها الاهتمام بعظماء الرجال - دور الفرد
في التاريخ أي أن البطل - القائد - هو الإنسان المشارك بوعي في صناعة التاريخ (16) إذ لهم
دور في تشكيل التاريخ ويتأثرون بما حولهم من أوضاع داخلية وخارجية وهنالك شروط
للزعامة على هذا النحو .

أن يكون العصر الذي ظهر فيه الزعيم يسمح بتفوق بعض الأفراد على غيرهم.
تجمع ظروف موضوعية مختلفة - داخلية وخارجية تهيب الجو المناسب لبروز الزعيم

تمكن فرد معين من تفهم الظروف واستشعار آمال أمته وآلامها (17)

لذلك فإن إعطاء مساحة مناسبة لحركة الفرد إلى جانب الحركة الجماعية يؤكد على أن ملامح وأبعاد الحركة التاريخية تظهر من خلال بعض الشخصيات لقوة فاعليتهم وأثرهم في دفع عجلة التاريخ فليس من الصحيح إهمال أخبار الأبطال التاريخيين بحجة أنهم مجرد دمي في حركة المجتمع الواسعة ولكن هؤلاء الأفراد لم يبرزوا لمجرد تفوقهم وامتيانهم على أقرانهم ووجود الاستعداد عندهم إذا ما كانت هذه السمات المميزة لتظهر لولاء العقيدة، وهذا الفهم سيعطي الفضل الأكبر للعقيدة ويضع الانزلاق نحو تمجيد الفردية والإغراق في غرس نزعة الاستعلاء والغرور⁽¹⁸⁾ خاصة وأن الشخصية الكردفانية اتسمت بحسب الدكتور عبدالمجيد عبدالرحيم الحاج بالتواضع - فكردبان - يتسم أهلها بالألفة وحب الغريب - وبها تألف عرقي وانسجام بين القبائل فهي سرّة السودان وتضم عروس الرمال ، كردفان إسماعيل الولي ، الشيخ عبدالباقي ، الشيخ محمد طه التجاني، الشيخ موسي عبدالمجيد ، الشيخ حماه الله ، الشيخ الداه ، الشيخ الشريف أحمد عبدالمنعم التجاني ، الشيخ مشاور جمعة سهل ، الشيخ عثمان حسن الجعفري ، الشيخ الطيب مونة، الشيخ الهندي ، الشيخ الفاتح النور تيرير والشيخ الحدري وأبناؤه وآل زكي الدين وحتى كريكو متعهد خورطقت وبنبوفي بكازقيل⁽¹⁹⁾ والمك عبده كروس ويابو نمر ومنعم منصور ، ومحمد هارون نيمة ، وآل البديري، وخطوات القران الممتدة على ربوع كردفان .أما حين يشتد الخطر فتتجمع القبائل الكردفانية ولسان حالها يردد " أنا مكتول هواك يا كردفان " مثلما يصدح عبدالقادر سالم ، وتمثل هذا السطح الاجتماعي التاريخي في الوحدة في شيكان فقد تدافعت القبائل الكردفانية للمشاركة فيها خاصة، أن هنالك أول مؤتمر وحدوي في تاريخ السودان الحديث في السعي نحو الوحدة الوطنية بقيادة المهدي في قدير بجنوب كردفان قد سبق شيكان، ولذا اشترك الجوامعة بزعامة جمعة الإمام كما انضم الكبابيش بزعامة التوم فضل الله سالم إلى ذلك التجمع القبلي وأعلنوا مايبعتهم للمهدي . أما الشيخ علي الجلة أحد زعماء المسييرية فلم يتخلف عن حركة الجهاد في شيكان كما شاركت قبيلة المجانين بزعامة أحمد لقمان في شيكان وكذلك الكواهلة بقيادة الشيخ جاد الله بليلو كما قدمت قبائل الأحامدة وبعض قبائل تقلي لأنصار المهدي الذرة واللحم كما أن دور كنانة والبديرية وغيرهما من قبائل كردفان واضح في هذا الصدد⁽²⁰⁾ ومن أهم الآثار الاجتماعية لشيكان على كردفان توحيد قبائل المنطقة نحو هدف واحد مع التدريب

العسكري على الأسلحة الحديثة وتأسيس الجهاز القضائي على الشرع وليس العادات والتقاليد المحلية، وتوفير الدعم المالي لتمويل حركة الجهاد، والمقاومة، وارتفاع المستوى الثقافي والاهتمام بتعلم الراتب في البرنامج اليومي وقيام حركة إصلاح ديني ضد البدع والشوائب (21) ومشاركة النساء في الجهاد والمقاومة من قبل خاصة وأن الشيخ بدوي أبوصفية - هو ومدينة الأبيض مقترنان كغرس رمان في التراث المحلي ساكن الأبيض وما عارف ود أبوصفية (22) - أول من أنكر إسلام الأتراك وتشكك فيه قبل المهديّة ، ولعل اجتماع قبائل كردفان في شيكان ودوافعهم المعنوية تتضح في قول مخطوط معلّى " من حاول أن يعدل شراك نعاله - الشقيانة مصنوعة من جلد البقر - لم يحضر المعركة (23) .

إن الملك السناري بادي أبودقن (1643 - 1668م) كان أول من تلمس الشخصية الكردفانية بمحاربه لملك تقلي نهاراً وكان يأتيه الطعام ليلا مما جعل السلطان السناري يعقد معه صلحا ويأخذ بعض جنود تقلي للعمل في جيشه مما يوضح أن الشخصية الكردفانية تنسم بالشجاعة والكرم والتدين (24) .

ولذا فإن استخدام المأثورات الشفهية لدراسة القيادات المحلية يتم بالاعتماد في المقام الأول على التراث الشفهي والذي يعد ثقافة تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق الكلمة المنطوقة أكثر من السجلات والمواثيق المدونة ويستخدم للإشارة للمجتمعات المحلية التي لا تستخدم اللغة المكتوبة (25) خاصة وأن هنالك بعض الأرياف تسود فيها الأمية - في كردفان - بما يعادل 85% (26) .

ولعل أهم مميزات هؤلاء المتحمسين للتاريخ الشفهي أو الرواية الشفهية تكمن في النزعة إلى المبالغة في أهمية وجدية البحث التاريخي الشفهي باعتباره " شيئا جديدا أو غير مألوف " والواقع أن الجديد في ذلك هو تدوين الكثير من الحقائق التاريخية الجديدة التي يتم الكشف عنها أثناء المقابلات الشخصية - العمل الميداني - التي يتم تسجيلها فتغدوا وثائق مدونة توضع في متناول الباحثين ولذلك فإن الباحثين في التاريخ الشفهي لا يمثلون أحدث نوع من المؤرخين بل أقدم نوع ومع ذلك نستطيع أن نؤكد أن نمو الاهتمام بالبحث التاريخي الشفهي يعتبر أحد أهم المميزات المثيرة جدا للدراسة التاريخية في الوقت الحاضر ، خاصة أن التقدم

في مجال التقنية الحديثة قد جعل هذا النوع من البحث التاريخي ممكنا وملثما من الناحية الاقتصادية والفنية والعلمية⁽²⁷⁾.

وقد ساعد الاهتمام الجديد المتزايد بتاريخ العالم الثالث خاصة بعد تحرير المستعمرات ونهاية الاستعمار على هذا التطور في مجال البحث التاريخي الذي يعتمد على الرواية الشفهية إلى جانب المصادر المدونة كما ساعد على هذا التطور أيضا البحث المكثف في مجال الدراسات التاريخية التقليدية الأخرى، ومن الغريب حقا أن حقل التاريخ الشفهي يعتبر من حيث التركيز البحثي المقصود في مقدمة دراسة التاريخ بينما تخلفت مجالات أخرى من مجالات دراسة التاريخ وذلك من حيث تحليل النص⁽²⁸⁾.

وفي الواقع أن علماء الدين الإسلامي هم أول من نظم نقد الروايات التاريخية وأول من وضع القواعد لذلك ، فقد كان لزاما عليهم الاهتمام بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله من أجل فهم القرآن ، وهم بذلك قد منحوا علم التاريخ قواعد ومناهج لدراسته لاتزال في جوهرها ذات أهمية في الأوساط العلمية وبين مناهج البحث التاريخي الحديثة - خاصة وأن التراث الإسلامي له منهج دقيق لضبط المرويات الشفهية انبثق من علم الحديث وهو قمين بأن يكون أساسا صالحا للمنهج التاريخي⁽²⁹⁾.

وإن كان هناك بعض المؤرخين ينكر أن تكون الرواية الشفهية مصدرا للتاريخ ويرى البعض بأنها أساطير موظفة لخدمة البحث التاريخي كما أنها لاتقوم على الترتيب الزمني ولكن معظم مؤرخي إفريقيا يقبلون الآن صلاحية الروايات إن كانت في نظرهم أقل تأكيدا من المصادر المدونة أو أن تكون مدعومة بمصدر آخر حسب القاعدة التي تقول " نص واحد يعني عدم وجود نص " إلا أن بعض المؤرخين يعد الرواية الشفهية من أمثال ديشامب وفانينيا وماك كال وبيرسون " مصدرا مساويا في التقدير للمصادر المكتوبة رغم أنها عموما أقل دقة منها، ولكنها في بعض الحالات تقارب الرواية الشفهية في درجة الوثوق بالبيّن والرواية التاريخية من جهة أخرى ومن جهة نظر التاريخ الزمني والمنطق السابقة للكتابة ففي البدء كانت الكلمة ثم إن الرواية تقدم لنا أحيانا شواهد نابعة عن التجربة⁽³⁰⁾.

إن المدرسة المعاصرة في البحث التاريخي تركز على علاقة التاريخ - الجغرافيا - مثلا شخصية كردفان دراسة في عبقرية المكان - والتي بدأت مع نشأة علم التاريخ وبالتالي هي

الأقدم على الإطلاق ومثال ذلك ما كتبه مؤرخو السيرة والمغازي عن منازل الوحي في مكة أو طريق الهجرة إلى المدينة وميادين المغازي والسرايا وما كتبه مؤرخو الفتوحات عن الأقطار التي استطلت بالراية الإسلامية مثل اليعقوبي والمسعودي أما علاقة التاريخ بالاجتماع فقد أشار إليها ابن خلدون حين رأى ضرورة النظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران بهدف استخلاص ما يلحق العمران من الأحوال لذاته ، ولذلك يعد كتاب الخطط التوفيقية لعللي باشا مبارك محاولة لتسجيل جوانب من تاريخ مصر الاجتماعي كما يعد كتاب مناهج الألباب لرفاعة رافع الطهطاوي محاولة منهجية لمعالجة بعض القضايا الاجتماعية والاقتصادية بل لعلها دراسة في علم الاجتماع وربما كانت محاولة الشيخ محمد عبده المبنية على آراء ابن خلدون في التاريخ دراسة في التاريخ والاجتماع ، وفي الغرب بدأت تضعف المدرسة التقليدية المعتمدة على التاريخ السياسي العام وسير العظماء بل تأثرت بآراء (اميل دور كايم) التي ترى أن التاريخ الحقيقي هو تاريخ المجتمعات وأن تاريخ أي جماعة من الناس هو تاريخها الاجتماعي لأن الفرد لا يتحرك في فراغ بل هو جزء من المجتمع⁽³¹⁾

ويقصد بالتاريخ الاجتماعي دراسة التغير الذي يحدث في شبكة العلاقات الاجتماعية وينتج عنه تطور النظم الاجتماعية والتحول في المفاهيم والقيم الاجتماعية وبذا يعد استجابة محددة ونتيجة مباشرة للتاريخ السياسي وتاريخ الحكومة والدولة⁽³²⁾.

وتفاعلت مناهج التاريخ والاقتصاد والانثربولوجيا والفلسفة والاجتماع ولكن علم الاجتماع كان أكثر تأثراً في مناهج البحث التاريخي خلال الفترة الأخيرة ، يقول العبادي كان ذلك الارتباط الجديد بين التاريخ والعلوم الاجتماعية نتيجة طبيعة لأزمة المنهج التي مر بها التاريخ في منتصف القرن العشرين حين وجد التاريخ نفسه في ظروف لم يحسب حسابها تمثلت في ظهور ثلاثة عناصر رئيسية هي :

- التطورات السياسية وثورة المعلومات كشفت عجز المعرفة التاريخية عن تفسير عنصر المفاجأة الجديدة في الأوضاع الدولية .
- التحدي الذي واجهته المعرفة التاريخية كدليل للمستقبل وعجزها عن القيام بالدور الذي تقوم به العلوم الاجتماعية الحديثة والاقتصاد والاجتماع والانثربولوجيا وعلم

النفوس التي أظهرت قدرتها على تقديم الحلول لمشكلات العصر ، وبذلك أصبح ينظر للماضي على أنه لم يعد دليلا للمستقبل .

- ثورة جيل المؤرخين الذين قبلوا تحدي العلوم الاجتماعية بنظرة اجتماعية شاملة يمكنها ان توجه للماضي الأسئلة ذاتها التي توجهها للحاضر موظفين في ذلك مناهج العلوم الاجتماعية بالإجابة عنها بعد تطبيق قواعد منهج البحث التاريخي وعرف هذا الاتجاه باسم " التاريخ الجديد " (33)

- ويمكن القول إن الأعوام التي مرت بين سنتي 1940 - 1970 شهدت ظهور صنف جديد من المشاكل كالسلوك الجماهيري والتكيف الثقافي ودور المنقذين وغير ذلك مما لم تكن الطرق العرفية للبحث التاريخي جيدة الأعداد لمعالجتها وكانت نتيجة ذلك أن حدثت فجوة في طرق البحث بين نظرية الكتابة التاريخية وتطبيقها وأن أحد الأسباب الرئيسية للجوء المؤرخين إلى تقنيات علماء الاجتماع هو الاعتقاد بأنها قدمت وسيلة لسد الفجوة في طرق البحث (34)

كان التاريخ قد تأثر إلى حد كبير بتطور المناهج في العلوم الاجتماعية على هذا النحو فقد انعكس ذلك بوضوح على تناول مصادر التاريخ من الوثائق خاصة فلم تعد الوثائق الرسمية وشبه الرسمية وحدها معيارا لتقديم المعرفة بالحقيقة في الماضي، إنما امتد مفهوم الوثائق ليشمل كل مصدر كتابي أو شفاهي وبعبارة أخرى لم يعد التاريخ يدرس الماضي من زاوية اجتماعية، إنما يدرس المجتمع في الماضي (35).

لقد أصبحت النظرة المباشرة أو الشاهد المباشر دون وسيط مهمة جدا لدراسة الموضوعات ذات الطبيعة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مما يصعب أو يستحيل وجود معلومات عنها في الوثائق الرسمية وهو اتجاه اهتم به الفرنسيون الذين أثروا الغوص تحت سطح الأحداث للعثور على طبقة سفلى من الحقائق الثابتة تساعد على فهم الأحداث والمجتمعات فالفرنسيون المعاصرون يرددون مقولة لوسين فيفر " أن التاريخ يجب أن يكتب اعتمادا على الوثائق المكتوبة إن وجدت ولكنه يمكن بل يجب أن يكتب اعتمادا على كل ما يستطيع الباحث بمهارته وحذقه أن يستنبطه من أي مصدر " وفي هذا الإطار وجد العامة

أنفسهم في دائرة اهتمام المؤرخين بما يتناسب ودورهم الاجتماعي في محاولة لتقويم أصداء هذا الدور وتداعياته على الحاضر والمستقبل .

وعلى ضوء هذا لم يعد إدراك " الحقيقة التاريخية " وحده هدفا يتصور الكتابة التاريخية الجيدوا إنما أصبح التوظيف الجيد للمصادر والتوظيف الجيد للمنهج العلمي والمعايشة الحقيقية للموضوع لها ذات الأهمية وهذا ما أكده تولستوي في الحرب والسلام من أن " التاريخ دراسة حياة الشعوب وأن الإمساك بهذه الحياة ووضعها في كلمات أمر صعب وقد يكون مستحيلا" ومع التسليم بأنه " لا تاريخ بغير وثائق " إلا أن الوثائق وحدها لا تكتب تاريخا وذلك لوجود المصادر الشفاهية التي عرفت في كتابة التاريخ قبل أن تعرف الوثائق⁽³⁶⁾.

كما أن أحد مصادر التاريخ الاجتماعي اعتمد على الشفاهة في كردفان هو دراسة الحياة الحضرية فقد ظهر أول عمل علمي في الغرب عام 1905 في كتاب ماكس فيبر " المدنية " والتي عرفها بأنها الشكل الاجتماعي الذي يسمح بظهور أعلى درجات الفردية والتفرد وهي بذلك لا تشكل أسلوبا واحدا للحياة ولكنها تحتوي على مجموعة بناءات اجتماعية تؤدي إلى ظهور أنماط متعددة وملموسة في أساليب الحياة وبذلك فإن المدنية على هذا الأساس تمثل بناءات اجتماعية تشجع الفردية الاجتماعية والتجديد - التحديث - وهي بذلك وسيلة للتغيير التاريخي أما مدرسة شيكاغو فتركز الإجابة عن سؤالين هما : ما هي القوى غير الاقتصادية التي تعمل على خلق ثقافة المدينة والمدينة عند هذه المدرسة تحاول أن تفهم باعتبارها مكانا ونظاما أخلاقيا عن طريق التحليل الوظيفي لإظهار إمكانات الحياة الثقافية والأخلاقية وأثرها في خبرة سكان المدينة⁽³⁷⁾.

أما عند علماء المسلمين فإن الاهتمام بالمدينة قديم خاصة وأن المدينة المنورة هي دار الهجرة والسنة كما هو معلوم المصدر الثاني للتشريع وسادت كتب عن المدن مثل تاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي وتاريخ المدن في الأندلس مثل " الإحاطة في أخبار غرناطة " للسان الدين ابن الخطيب وغيرها فإذن فإن الاهتمام بالمدن هو اتجاه أصيل في البحث التاريخي عند المسلمين، ويطلق على المدينة في الفكر الإسلامي - القرية - خلافا لمنهج البحث التاريخي في الغرب الذي يقسم الناس إلى حياة ريفية زراعية

ابن عمر عمر عبيد الله نحو فلسفة جديدة لكتابة تاريخ إفريقيا
وحياة مدنية صناعية وبذلك يسقط البادية من حساباته مع أن البادية هي أصل الحضارة عند
ابن خلدون

ويمكن استخدام مقياس الظاهرة الاجتماعية في البحث التاريخي الشفاهي في كردفان
لأن الظواهر الاجتماعية هي التوفيق الذي يظهر في السلوك والتصرفات بين طوائف الناس
المختلفة في وحدة التقاليد والمجتمع ووحدة اللهجات واختيار الملابس والذوق في تأسيس
السكن وهنالك صفات للظاهرة الاجتماعية على هذا النحو :

- أنها انسانية أي تختلف عن الظواهر التي تدرسها علوم الرياضة والفلك والطبيعة
والكيمياء بالرغم من تأثير الدراسات التاريخية بالنزعة الطبيعية حيث انعكس منهج
العلم الطبيعي على التاريخ فأصبحت خطوات منهج البحث التاريخي على النحو
الآتي :

- منهج تجريبي استقرائي غير مباشر حيث لا يخضع التاريخ للتجريب .
- حشد مادة تاريخية فيها حصيلة هائلة من الأحداث التاريخية .
- حصر الواقعة المراد دراستها زمانا ومكانا .

الوصول إلى أحكام كلية : (39)

ويقصد بالاستقراء التعميم القائم على تصفح عدد من الجزئيات أما إذا اكتفينا بسرد
الوقائع حتى ولو تجانست كان منهجنا جزءا من التاريخ أي التدوين أو السرد ولم يدخل في
باب العلم أو الفلسفة قط ، وأقصى ما يمكن لهذا السرد أو التدوين للأحداث المنفصلة أن
يؤديه في باب العلم أو الفلسفة هو توفير المواد أو الشواهد التي يمكن الاستعانة بها في تشييد
بنيان علمي من نوع ما . فلكي يصبح التاريخ علما على المؤرخ ألا يكتفي بسرد الوقائع أو
تدوينها بل استقراء العلل أو الملابسات التي تتحكم بصورة عامة بتسلسلها أو ترابطها أو
تداخلها .

ومن هنا يمكننا القول إن التاريخ وهو عبارة عن مجموعة الأحداث أو الأفعال البشرية
يعتمد بالدرجة الأولى على الاستقراء والتعليل ومع ذلك إذا أنعمنا النظر في المنهج التاريخي
 نجد أنه يكاد يقتصر على الالتزام بقاعدتي المشاهدة والإسناد ، الحادثة الجزئية لا تدخل
نطاق التاريخ ما لم تدون وهي لا تدون ما لم تتوافر على لسان شاهد عيان أو شهود عيان

ولكي نتحقق من صحتها علينا التحقق من صحة الأسانيد التي بنيت عليها والوثائق التي دونت فيها مع سلامة طاقة مشاهديها على الملاحظة أو الرواية التي يمكن الركون إليها فنحن قد نرفض تصديق رواية شاهد عيان إما للشبهات التي قد تحوم حول صحة كلامه أو لما نعرفه من إفادات لاحقة بحواسه ولاسيما سمعه وبصره أو لخلل في قواه العقلية أو سذاجة في طبعه أو سفاهة في رأيه وكل ذلك يدخل في نطاق التمحيص الذي ينبغي أن يتسم به المنهج التاريخي الصحيح ، وتجدر الإشارة إلى أهمية الدور الفاعل الذي يلعبه المؤرخ في اختيار ما يراه جديراً بالتدوين والتجاوز عما هو خارج عن هذا الإطار إما بحكم نظريته الخاصة أو نظرة المجتمع أو العصر الذي ينتمي إليه إلى ما هو جدير بالتدوين أو المعالجة أو التعليل بناء على مقاييس معيارية لا يتجرد عنها أي نشاط بشري .

وعلى هذا الأساس تشترك علوم التاريخ والعلوم الاجتماعية بخاصية فريدة هي خضوع محتواها لسنن التطور والتغيير فالمجتمعات البشرية تكاد تشبه الكائنات العضوية من حيث قابليتها للتطور والتغيير ، فكان من الخطأ أن يكتفي العالم بتدوين أفعالها وأقوالها ومآثرها تدوينا أعمى بل كان لزاماً عليه أن يغوص إلى الأعماق في البحث عن القوى الفاعلة التي تكمن وراء التحولات الكبرى التي تمر بها ولتأخذ مثالا على ذلك مثلاً مجتمعا في طور التحول السياسي والاقتصادي العنيف كالمجتمع الفرنسي على عتبة الثورة الفرنسية سنة 1789م أو المجتمع اللبناني على عتبة الحرب الأهلية المستعرة منذ سنة 1975م على العالم الاجتماعي والسياسي في كلا الحالتين أن يتعقب العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أدت إلى اندلاع نار الثورة في الحالة الأولى والحرب الأهلية في الحالة الثانية والأهداف والمرامي التي كانت تحفز القادة والجماهير على مواصلة الكفاح والقوانين التي تتحكم بالمتغيرات القائمة أو المقبلة في غمرة المراحل المتلاحقة وسط هذين النموذجين⁽⁴⁹⁾.

- كما أن الظاهرة الاجتماعية مكتسبة أي يكتسبها الفرد خلال معيشته مع أقرانه ولذلك فأنها تختلف من زمان إلى زمان ومن مجتمع إلى مجتمع .

تفرض الظاهرة الاجتماعية نفسها على الفرد باعتبارها صادرة عن الجماعة .

تتصف بصفة العمومية أي الانتشار مثل انتشار التصوف أو الطرق أو الجرائم

إنها تاريخية فهي تمثل فترة تاريخية من حياة المجتمع وهي مادة التراث التاريخي وما يحتويه من عرف وعادات وتقاليد .

وننتقل من جيل إلى آخر ولا تتغير بتغير الأفراد فظاهرة شكل الملابس والسكان - اللانديسكيب - التي تسود مجتمعا من المجتمعات تستند إلى تاريخ طويل حافل بالعادات والتقاليد ومع ذلك فالظاهرة الاجتماعية ليست جامدة بل باقية في شيء من المرونة .

الظاهرة الاجتماعية ليست مثالية وإنما تمتاز بالواقعية والموضوعية أي أنها محققة بالفعل في المجتمع فالتاريخ الاجتماعي لا يتعامل مع ما ينبغي أن يكون وإنما يتعامل مع ما هو موجود ولذلك تجب دراسة الظاهرة بوصفها أشياء من عالم الأشياء عالم الأفكار عالم الأشخاص .

تمتاز الظاهرة الاجتماعية بأنها مترابطة ومتشابكة مع غير ها من الظواهر ويؤثر بعضها في بعض ويفسر بعضها البعض .

الشرط الأساسي في وجود الظاهرة الاجتماعية ينحصر في ظاهرة الاجتماع وعليه تختلف الظواهر الاجتماعية تبعاً لاختلاف العصور التي تتشكل بها ظاهرة الاجتماع ومن ثم تختلف الظواهر من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى أخرى .

ويستخدم الانجليز والإيطاليون كلمة (ظواهر) والفرنسيون يستخدمون كلمة (وقائع) والأمريكيون يستخدمون كلمة (أنماط) وكل هذه الألفاظ تدل في استخدامها باعتبار أنها نموذج أو طريقة للسلوك في العمل والتفكير الاجتماعي في الأمور الاجتماعية والظاهرة تدل على النظر للوقائع الاجتماعية من الخارج أو من ناحية الملاحظة. (44)

- وقد أوضح فيكو في مؤلفه " العلم الجديد " أن هناك تغيرا يجب أن يحدث من دراسة التاريخ الشخصي إلى دراسة العادات والقوانين والنظم وأشكال التنظيم الاجتماعي والاقتصادي واللغة والفن والدين والعلم. ونمو المجتمع الصناعي نتج عنه الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي الذي يهتم بدراسات تشمل البناء الاجتماعي والنظم التاريخية والتغير الاجتماعي وتطور المفاهيم الاجتماعية والتحويلات التي

تطراً على القيم الاجتماعية. ومن الدراسات العامة في هذا المجال دراسات مارك بلوش الذي عرف التاريخ بأنه لا يتتبع تراكم الأحداث التي ظهرت في الماضي، ولكنه علم المجتمعات الإنسانية. كما تعد دراسة التطور الثقافي من الاتجاهات الرئيسية في ميدان الدراسات الانثروبولوجية ويرجع إلى (هيربرت سبنسر) في دراسته لتطور المجتمع الإنساني من البسيط إلى المعقد أو إلى أوجست كونت الفرنسي 1798 - 1857 أو إلى لويس مورجان 1818 - 1881م أو إلى الانجليزي أدوارد تايلور ولذلك فإن الغربيين ينسبون ذلك إلى أنفسهم في فضل سبق مع أن ابن خلدون قد سبقهم جميعاً بقرون عديدة حين قرر في مقدمته أن الاجتماع البشري لا يستقر على حالة واحدة وإنما يتغير ويتطور نتيجة مايلحقه من الأحوال مما يعد مساهمة من علم الانثروبولوجي في ميدان دراسة التاريخ ومن الواضح أيضاً أنه لا يمكن دراسة مشكلات التطور الاجتماعي إلا في حدود التاريخ وأن معرفة التاريخ تساعد مساعدة فعالة على تفهم المجمع أو الثقافة كما أن الظواهر الاجتماعية تقسم وتصنف إلى الجماعات البيولوجية - الأسرة - والتجمعات الجغرافية ، القبائل والقرى ، والمدن ويمكن الاستفادة منها في البحث الشفاهي ،⁽⁴³⁾ ولمحاولة كتابة تاريخ كردفان يمكن الاستفادة من مصا دره التي لم يلتفت إليها في الدراسات التاريخية وهي الفتاوي وهي جمع فتوى - في الاصطلاح الأصولي - الإخبار بحكم شرعي لا على وجه الإلزام أو الإخبار لفظاً أو كتابة بالحكم على غير وجه الإلزام. وتتسع موضوعات الفتاوي لتشمل كل جوانب حياة المسلم في نطاق عباداته وعلاقته بخالقه وفي نطاق أسرته وصلته بأفرادها وفي نطاق مجتمعه وتعامله فيه مع أفراده ومع حكومته ولذلك تكون الفتاوي بعيدة عن نزعة الافتراض التي طبعت كثيراً من كتب الفقه النظري ، وبحكم الصلة الوثيقة بين كتب الفتاوي والواقع تصبح الفتاوي معبرة عن صور لحياة (أهل كردفان) مشيرة إلى جوانب من التعامل ومن العادات في مجتمعهم وقد تصرح بأحداث أو تروى وقائع مما أغفله المؤرخون ومما كان جارياً في الحياة اليومية.⁽⁴⁴⁾

- وكان الاهتمام بالفتاوي أحد أركان المدرسة المغربية القديمة في البحث التاريخي وكان من أعمدها محمد مزين في " فاس وباديتها " ومحمد المنوني في ورقات عن الحضارة الموحدية وعبد الهادي التازي في التاريخ الدبلوماسي للمغرب والتي تقوم على السرد والتحليل باتباع منهج الظاهرة والاستفادة عموما من علم الاجتماع في حالة محمد مزين وذلك للعلاقة الوثيقة بين التاريخ وعلم الاجتماع لأن عالم الاجتماع لأبد من رجوعه إلى الماضي للوقوف على طبيعة الحقائق الاجتماعية وتطورها ومعرفة الوظائف التي كانت تؤديها النظم الاجتماعية وعلى الباحث الاجتماعي أن يستخلصها وينقيها من شوائبها ويختار من الحقائق التاريخية ما يخدم أغراضه التي تكون في كثير من الأحوال منسحة أو مصححة لعمل المؤرخ كما أن على المؤرخ الاستفادة من النظريات الاجتماعية وإخضاع مادة التاريخ للمنهج النقدي التحليلي مما يساعد على تحليل الظاهرة والوقوف على النظم الاجتماعية والكشف عن القوي المؤثرة في التغير والتطور والتقدم الاجتماعي وفي ذلك أيضا استفادة من المنهج الأنثروبولوجي الذي يقوم على الدراسة الميدانية. (45)

- أما المدرسة الحديثة والمعاصرة في البحث التاريخي في المغرب فتعتمد على الاهتمام بالفلسفة والنظر إلى البحث كوحدة واحدة وذلك بالاستفادة من الرياضيات والاعتماد على فلسفة التاريخ المعاصرة (44) التي تؤمن بالتغير والتطور إذ أن هنالك منظورين لفلسفة التاريخ الأول باعتبارها دراسة لمناهج البحث أي الطرق التي يكتب بها التاريخ أي الفحص النقدي لمنهج المؤرخ ، والثاني النشاط التركيبي، وفيه لا يدرس الفيلسوف مناهج البحث في التاريخ وإنما يقدم وجهة نظر عن مسار التاريخ ككل أي تاريخ الإنسان وتطوره الحضاري أي أن هذا المنظور يمثل خاصية الموقف الفلسفي (47) الذي يدرس الموضوع ومن أعمدها عبدالله العروي والذي نظر في (جذور القومية المغربية) في كل شيء : في الأزياء والنقود في الدين وفي القبيلة أنها وحدة تحكتر كل شيء وتبتلع كل

الفروق إلا أن الفروق تعمل في صمت وتتريص لتراوغ عن طريق اللغة والرقص والفن والوشم. (48)

- ومن أعمدها أحمد العماري في (نظرية الاستعداد في مواجهة الاستعمار : المغرب نموذجا) وكيف ساهم العلماء في تعبئة الأمة في مواجهة الاستعمار سواء على المستوى النظري أو التطبيقي وكيف أن هذا درس يقدم للاستفادة منه فإذا كانت المجتمعات البدوية أو الريفية تستعيب عن مجتمع الخبراء ممن تزودوا بتدريب نظامي في مؤسسات الدولة الحديثة من جامعات ومؤسسات خدمة مدنية وعسكرية بحكمة الشيوخ والقيادات الأهلية المستلهمة من تجارب الأسلاف مما يستدعي إقامة مراكز أبحاث للمساعدة في صناعة القرار في النطاق الحضري. (49)
- ولذلك فإن الاهتمام بالزعامة والقيادات المحلية يركز أساسا على أساس أن قادة الفكر هم الذين يرجع اليهم الآخرون لطلب النصيحة في الدنيا والدين . (50) خاصة وأن الدعوة التي أطلقتها صحيفة الرأي العام في شهر أيار (مايو) لدراسة البيوتات الدينية والمحلية وكيف ساهمت في تشكل القرار السياسي وفي قيام ونمو المراكز الريفية والحضرية. (51) ومثال ذلك أن مدينة الرهد قامت ونمت نتيجة لمجهودات الشيخ آدم سعد الدين والد العمدة كبر - والذي كان عمدة مدينة الرهد وتبني كل الوافدين إلى المدينة وهم بسوق الرهد مع قيامه ليلا للذكر (52) خاصة وأن الروايات الشفهية - عند الصوفية - تذكر أن مدينة الرهد وكذا أبوزيد وتقلي سوف يزداد عدد سكانها في آخر الأمر بدون ذكر أسباب ظاهرة . (53)
- كما تكشف الروايات الشفهية عن العلاقات بين الشيخ عبدالله ود جاد الله والسلطان علي دينار تمثلت في كسوة الكعبة ووصلت هذه الأخبار إلى بريطانيا عن طريق القبائل المجاورة فأصبح الاستعمار يدبر له المكائد لكي يتخلص منه وتم اتهامه بالتهرب من تسديد رسوم القطعان في فترة محددة ولذلك نشأ صراع بينه وبين مفتش بحري كردفان - بارا - في قرية كجمر وثار النقاش بينه وبين المفتش الذي أمره بالتوقيع فسمي (كسار قلم ماك مايكل) وكان تحطيم القلم

نواة لعزله من الحكم فأرسل له مندوب لاعتقاله بقرب أم بادر وتم نفيه إلى منطقة الكواهلة على النيل الأبيض حتى وفاته في أوائل الستينيات كما أن الشيخ أحمد الأيسر جمع بين الوظيفة الروحية والمادية وكان صاحب خلوة لتدريس القرآن في دار الكواهلة وقاد القبيلة عام 1910. (54)

والقبيلة - في الفكر الغربي المعاصر - هي مجموعة اجتماعية من نوع بسيط تتكلم لهجة واحدة لها حكومة واحدة تتحد في رد الفعل - السلوك في المواقف المتعلقة بالحرب مثلاً. (55)

ولذلك فإن القبيلة في كردفان ليست جسماً منعزلاً واستاتيكيًا ولا هي شيء انصهر وكف عن الوجود فالقبيلة كيان متحرك ليس على مستوى الترحال ولكن في التبادل الاقتصادي والرمزي في الحرب والسلام والصراع مع القبائل الأخرى ولا كيف نفسر الأحلاف؟ أما القائد أو الزعيم فهو الجسر الإداري الذي يربط القبيلة بالمجتمع السياسي وبالمخزن - الحكومة - وهو الجسر الثاني الذي يقود القبيلة نحو الوحدة والتحالف. (56)

كما تكشف الروايات الشفهية أن الحركة السلفية لم تجد طريقها إلى البادية والريف الكردفاني - بعد الاستقلال بشكل كبير وإنما لها وجود بأعداد قليلة في المدن وبعض القرى - وفي هذه الأخيرة - يقتصر نشاطهم في حلقات الوعظ في الأسواق وفي أغلب الأحيان تحدث المواجهات والمشادات مع أفراد من كبار السن أما وسط الشباب فتمكنت الحركات السلفية من التأثير على طلاب المدارس الثانوية والجامعات ولكن بأعداد قليلة وذلك علي سبيل المثال في قرية البقلتي الحجير دار بطحة التابعة لها في مناطق الشريط الرملي بجنوب كردفان. (57)

ذكرت بعض الدراسات الغربية مثل (ماك مايكل) في كتابه (قبائل شمال ووسط كردفان) أن بعض زعماء القبائل العربية مثل الحوازمة لا ينتمون إلى أصل القبيلة (58) مما يدفع للقول ما هو هدفه من ذلك؟ مع أن دراسة نشرت حديثاً عن هذه القبيلة بينت أن بيت النظارة - آل حماه أسوسه - هو أصل الحوازمة (59) ولعل ذلك مرتبط بسياسة الإدارة البريطانية بتفتيت الوجود الاجتماعي في المنطقة

في المستقبل داخل القبيلة الواحدة فضلا عن القبائل الأخرى كما أن (نادل) حاول التأصيل للعادات والتقاليد . أليس في ذلك صرف انتباه عن الوحدة الوطنية وتفتيت إرادة الأمة بدعوى الهوية⁽⁶⁰⁾ ؟ ومن جانب آخر ذكر (ستفنسن) أن الإسلام لم يقدّم بدور في البناء الاجتماعي للثورة⁽⁶¹⁾ فهل هذا صحيح ؟ ماذا يريدون من نشر هذه الكتابات ؟ هل هي العقلية العلمية الموجهة لوضع هذه المناطق تحت الاستعمار وإن خرج من الأرض ؟ ولماذا لم تركز الكتابات على تواصل هذه المنطقة مع إفريقيا ؟ مما يوضح أهمية العناية بالمصدر الشفهي لتأسيس فكر يرتكز على الأصالة من منظور التاريخ الداخلي للمجتمعات المحلية .

كما ذكر (هندرسون) بأن الأساطير تروي بأن الأب الروحي للحمر يمثل شجرة التبدي التي تشتهر بها المنطقة كما ذكرت وأن هذه الشجرة أصابها نفحة رياح باردة فأسقطت ثمارها وتقطعت الشجرة إلى ثلاثة أجزاء ، جزء طار في الفضاء بعيدا فسمي (الطرادات) وجزء سقط على الأرض فسمي (الدقايم) أما الجزء الثالث والذي انغرس داخل الأرض فسمي (الفريسية).⁽⁶²⁾ أما الرحالة الألماني (جوستاف ناخنتال) فقد أبعده النجعة حيث ذكر بأنه كان للأخوين حمد الأفرز وحمد الأجرم أخت أنشأت علاقة مع رجل من الزنوج - بعد وفاة والدهم - وهم قبيلة من العامة يتسم لون بشرتهم بالمعقولية - وهكذا أصبحت هذه الأخت جدة لقبائل الحمر⁽⁶³⁾ ، كما ذكر (مايكل تيس) عن المسيرية بأنهم قوم أهل مكيدة ولهم في المكر باع طويل ، وتحققت من ذلك وخبرت سوقه عندما كنت أعمل في الأبيض حيث نفي إليها ناظران سابقان للزرق هما محمد فقير ومحمد دفع الله⁽⁶⁴⁾ ويمكن القول إن مثل هذه الأفكار الغريبة عن تاريخ كردفان إنما تخطط لأهداف بعيدة المدى يمكن ملاحظتها وآثارها على قضايا التراب والإنسان في كردفان مما يستدعي جمع الروايات الشفهية والعمل الميداني لإبراز الجوانب الحية من المصادر الحية التي هي بمثابة الحكمة الكامنة في التراب الكردفاني .

ويبرز الاهتمام في الروايات الشفهية بقضية الدعوة والدعاة في الريف الكردفاني ويظهر الواقع الدعوي من خلال المساجد وحلقاتها الفقهية وفي زيارة ميدانية لإحدى قرى - أرياف الأبيض وجد أن إمام المسجد يحفظ بعض أجزاء القرآن الكريم مع عدم إمامه بالفقه مع أن هنالك رجلاً فقيهاً على المذهب المالكي ولم توكل إليه إمامة المسجد لأنه لا ينتمي عرقياً إلى أكثرية سكان المنطقة مما يخالف مفهوم الإمامة في الفقه ويبرز بشكل واقعي إشكالية الدعوة والدعاة في قرى كردفان. (65)

كما أن التاريخ الشفهي عليه إعادة الاعتبار في كردفان لرجال التربية الروحية إذ إنه في إفريقيا تصحب التفرقة بين الصوفي والفقيه بل إن الفقيه وشيخ الطريقة مصطلحات لمعنى واحد ولا يشار إلى أي منهما إلا بلفظ واحد فهو مرابط - مرابوط - في السنغال والشيخ في الجزائر والفكي في السودان ومودبو وفودبو في اللغة الفولانية، ومالم في لغة الهوسا، ومعلم في اللغة السواحيلية. (66)

يضاف إلى ذلك أن الصوفية في إفريقيا لها تميزها الذي اكتسبته من خلال أدوارها الفعالة في الجهاد ضد المستعمر وضد الأنشطة التبشيرية فضلاً عن إسهامها في التربية والبناء وتعليم الدين واللغة العربية (67) وكشفت الروايات الشفهية عن دورهم الدعوي في البادية والريف الكردفاني ومن ذلك دورهم وسط العرب الرحل في جنوب كردفان أو وسط النوبا في الجبال وذلك بدورهم المباشر أو بمساعدة القيادات المحلية (المكوك والنظار) مما يستدعي تدوين التاريخ الشفاهي لكردفان لإبراز العلاقات بين العالم والمتعلم والمجتمع. (68)

ولعل الدعوة لتدوين التراث والتاريخ الشفاهي لكردفان تتفق مع ما ذكره بعض الباحثين بأن المؤرخين السودانيين تعاملوا بإهمال مع الموروث الشفاهي ولم يتم استخدامه بصورة جدية ولا استغلال إمكاناته الواسعة وبالرغم من أن التاريخ الشفاهي أصبحت له مناهجه وأنه مصدر غني للمعرفة عن تاريخ الشعوب، ويجب لذلك الاستعانة به للكتابة العميقة للتاريخ وقد قامت دعوات لإعادة كتابة التاريخ وخصصت مؤتمرات عن كتابة التاريخ والفولكلور والتاريخ الشفاهي. (69)

وقد سار المؤرخون في السودان في إسقاط دراسة التاريخ الشفاهي السوداني - تبعا لمؤرخي الغرب - مما يبرهن على طبيعة تدريبهم كمؤرخين وليس عن قيمة التاريخ الشفاهي فهؤلاء هم خريجو أولئك المؤرخين والجامعات الغربية التي قامت على تقديس الوثيقة وإهمال التاريخ الشفاهي ، وعلى الرغم من أن هناك علوما كانت قد وضعت الأسس المنهجية العلمية لدراسة التاريخ الشفاهي ويأتي على قائمة هذه العلوم علم الفولكلور والتي أثبتت أساليبه نتائج علمية دقيقة ويعتمد عليها في كتابه التاريخ الإفريقي الآن. (70)

ولعل ذلك يبرز سؤالاً حول علاقة التاريخ بالفولكلور تتمثل في الشفاهية التي تميز الفولكلور من التاريخ الذي هو تسجيل حقيقي بالتدوين أما الفولكلور فإنه قد تطور كتفسير ماثور و(شفهي) في الغالب لأصول الأنبياء والتاريخ المبكر للإنسان (71) وهذا مايرمى إليه التاريخ الشفهي .

وقد بذلت مجهودات خاصة من قبل وحدة أبحاث السودان - الافرواشين - في جمع الفولكلور والروايات الشفاهية للعديد من المجتمعات والكيانات والمؤسسات السودانية الذي نتج عنه سلسلة دراسات في التراث السوداني ، يضاف إلى ذلك (مشروع بحوث التاريخ الشفاهي للسودان بجامعة أم درمان الأهلية) ولعل الاهتمام بالروايات الشفهية يضيف الكثير إلى التاريخ ويؤدي إلى التحرر من النظرة التقليدية الضيقة والاعتراف والاستعمال لمصادر أكثر اتساعا وتنوعا كمصادر أساسية أو مساعدة لكشف الأسرار التاريخية للمجتمعات التي استعملت طرقا أخرى لنقل المعرفة التاريخية غير الكتابة والوثيقة المخطوطة. (72)

فالحضارات الإفريقية في معظم جوانبها كانت حضارات كلمة لأن الكلمة عند الإفريقي غير مبتذلة فهي موجهة لأنها نور في هذه المجتمعات التي لاتعظم شأن الكتابة ولا تؤمن بقوميتها فالعقيدة عندهم - أن الكتابة شيء والمعرفة شيء آخر. (73)

ولكتابة تاريخ كردفان المطلوب اتخاذ العديد من الخطوات أهمها ما يلي :

الاهتمام بمادة علم التاريخ عبر الدراسات النظرية والميدانية والإعلامية.

إعداد باحثين في التراث والتاريخ الشفاهي الكردفاني عبر تأسيس أقسام خاصة بعلم الاجتماع والانثربولوجي والفولكلور والتراث الشعبي في جامعات كردفان. الاهتمام بمادة طرق البحث التلخي وإعطائها أهمية خاصة في المناهج المتعلقة بالمواد التاريخية.

تدريس مادة التاريخ بأسلوب جديد يخالف الطريقة التقليدية بإعطاء معلومات جاهزة يتعلق أغلبها بالجانب السياسي والاهتمام بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

- الاعتماد على المصادر المحلية والوطنية من وثائق ومخطوطات ومذكرات ومخلفات أثرية وروايات شفوية .

- تسهيل مهمة الباحثين، والبحث والدعم من قبل المؤسسات العلمية، وتوافر روح التعاون والتنسيق بين الجامعات الكردفانية وجهات التوثيق مما يدفع للقيام بأبحاث ودراسات جديدة هي من صميم كتابة التاريخ.

المصادر والمراجع :

- 1- حوار مع البروفيسور عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم في صحيفة الاتحاد الإماراتية العدد 9473 الثلاثاء 20 ربيع الأول 1422 هـ - 12 يونيو 2001م ص 18
- 2- إبراهيم القادري بوتشيش ، المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع الذهنيات الأولياء ط 1 ، دار الطليعة ، بيروت 1993م ص 5
- 3- ندوة التراث المغربي والأندلس ، التوثيق والقراءة ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية رقم (4) جامعة عبدالملك السعدي، المغرب 19-21 أبريل 1991م ص 429
- 4- حسن قبيسي: الفكر التاريخي والأسطورة والواقع الحنظلي في مجلة الفكر العربي العدد 42 س 7 يونيو 1986م ، ص 13
- 5- فرانسو شاتليه: ولادة التاريخ تعريب يوسف جباعي ، في الفكر العربي العدد 42 ، ص 448
- 6- المرجع السابق
- 7- نور الدائم ، مناهج البحث العلمي ، محاضرات أقيمت علي طلاب الدبلوم العالي في جامعة أم درمان الإسلامية معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي فرع الأبيض 3004م
- 8- أ. همياني با " المأثور الحي " في تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الأول اليونسكو ص ص 177 - 178
- 9- احمد طاهر ، إفريقيا فصول من الماضي والحاضر ، سلسلة المكتبة الإفريقية رقم (2) دار المعارف (د. ت) ص ص 33-0 35
- 10- جان فانسينا " المأثور المنقول ومنهجيته " في تاريخ إفريقيا العام مج 11 ص 156
- 11- عبده كاسوزي ، قصة انتشار الإسلام في يوغندا ، ترجمة عبداللطيف سعيد ، 1995 .
- 12- اوفاهي ر. س الدولة والمجتمع في دارفور ، ترجمة عبدالحفيظ سليمان عمر ط 11 ، مركز الدراسات السودانية ، القاهرة 2000م ص 9
- 13- سيد حامد حريز ، جامعة إفريقيا العالمية ودورها في التعريف بإفريقيا من منظور أهلها (ورقة غير منشورة) قدمت في ندوة الجامعات والعمل الإسلامي في إفريقيا ، الخرطوم 1-3 مارس 2004م ص 15
- 14- أكرم ضياء العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ج 1 ط 6 مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة السعودية 1415 - 1994م ص ص 19 - 20

- ابن عمر عمر عبيد الله نحو فلسفة جديدة لكتابة تاريخ إفريقيا
- 15- فانسينا ، المأثور المنقول ، مصدر سبق ذكره ص 157
- 16- عبدالله المعروي ، مفهوم التاريخ المفاهيم والأصول ج 2 المركز الثقافي بيروت 1992 - ص 363
- 17- عادل حسن غنيم ، جمال محمود حجر - في منهج البحث التاريخي ط 12 دار المعرفة الجامعية الاسكندرية 1998م ص 66
- 18- العمري ، السيرة النبوية مصدر سبق ذكره ص 18
- 19- عبدالمجيد عبدالرحيم الحاج مظاهر وتجليات التصوف الإيجابي في مناهج الدعاة المجددين ود أبوصفية وود القرشي وود زايد نموذجاً ورقة منشورة في المجلد الخامس من مؤتمر الإسلام في إفريقيا - الخرطوم 2006 ص 174 - 175
- 20- ابن عمر عمر عبيدالله التاريخ الاجتماعي لكردفان من الاستقلال إلي حل الإدارة الأهلية- أطروحة دكتوراه غير منشورة 2005
- 21- المرجع السابق
- 22- أحمد محمد بدوي " بدوي أبوصفية النموذج الصوفي بين مقاومة التسلط التركي والتربص التبشيري في دراسات إفريقية ع 32 س 20 ديسمبر 2004 ص ص 143 - 160
- 23- أحمد نور طيبة من شاهد عيان للعمري في كردفان مخطوط محلي ورقة 35
- 24- مصطفى محمد مسعد: بعض ملاحظات جديدة في تاريخ مملكة الفونج الإسلامية في مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ع 3 1972 ص 16
- 25- محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ص 311
- 26- آمال محجوب ، الآثار الاقتصادية والاجتماعية للنزاعات حول الموارد بأرياف محلية شيكان ، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة كردفان 2006 ، ص 53
- 27- ميلاد المقرحي " الرواية الشفهية والمصادر المدونة في كتابة التاريخ : أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات ج 12 ليبيا 1992م ص 884
- 28- المرجع السابق ص ص 884 - 885
- 29- ميلاد السفرجي: ملاحظات حول كتابة التاريخ والبحث التاريخي في مجلة البحوث التاريخية ع 2 ليبيا - يوليو 1984م ص 480
- 30- جوزيف- كي - زيربو : تاريخ إفريقيا السوداء القسم الأول ترجمة يوسف شلب الشام دمشق 1994م ص ص 23 - 26

- ابن عمر عمر عبيد الله نحو فلسفة جديدة لكتابة تاريخ إفريقيا
- 31- جمال محمود حجر " الحقيقة التاريخية بين المصادر الشفهية والمصادر المسجلة في الملتقى الخليجي الأول للتراث والتاريخ الشفهي ط 11 مركززايد للتراث والتاريخ - العين الإمارات 2000م ص ص 144 - 145
- 32- ابن عمر - أطروحة دكتوراه غير منشورة
- 33- حجر :الحقيقة التاريخية مرجع سبق ذكره ص ص 145 - 146
- 34- جفري باراكلو - الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية مترجم ترجمة صالح أحمد العلي ط 1 مؤسسة الرسالة بيروت 1404 هـ - 1984م ص 80
- 35- حجر ، الحقيقة التاريخية ، مرجع سبق ذكره ص 146
- 36- المرجع السابق ص ص 147 - 148
- 37- محمد عاطف غيث ، غريب محمد سيدأحمد ، علم الاجتماع الحضري ، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ، 1989م ص 44
- 38- سالم أحمد: محل المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب سلسلة كتاب الأمة رقم 60 رجب 1418 هـ - قطر ص ص 134 - 137 وكذلك راجع محمد صالح محمد أيوب ، جماعات التحديث الاجتماعي في وسط إفريقيا ط 11 القاهرة 1991م ص 236 ومقدمة ابن خلدون .
- 39- أحمد محمود صبحي في فلسفة التاريخ ص 15 ومحمد زين فاس وباديتهها ج 11 المقدمة وزكريا بشير إمام أصول الفكر الاجتماعي في القرآن الكريم ، عمان 2000م ص ص 73- 75
- 40- ماجد فخري إشكالية المنهج منهج واحد أم مناهج عدة في مجلة الفكر العربي 42 ص ص 10- 19
- 41- المرجع نفسه
- 42- راجع : زكي محمد إسماعيل: الانثروبولوجيا والفكر الإسلامي ط 1 عكاظ السعودية 1982م ص 48
- 43- محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ص 426
- 44- محمد ابو الأجنان، الفتاوي الأندلسية وتقويم تحقيق فتاوي ابن رشد في ندوة التراث المغربي والأندلس ص ص 141 - 142

- ابن عمر عمر عبيد الله نحو فلسفة جديدة لكتابة تاريخ إفريقيا
- 45- حسين عبدالحميد أحمد رشوان : ميادين علم الاجتماع ومناهج البحث العلمي ط 15 الاسكندرية 1989م ص ص 58 - 59 وكذلك الانثروبولوجيا الاجتماعية لايفانز بريتشارد ص 30
- 46- محاوره مع البروفيسور عبدالقادر عثمان جاد الرب عميد كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية الخرطوم 2005م
- 47- أحمد محمود صبحي في فلسفة التاريخ ط 3 مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية 1990 ص ص 17 - 24
- 48- رحمة بورفيه: حول القبيلة في المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ، في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ع 14 جامعة محمد الخامس الرباط 1988م ص 36
- 49- أحمد العماري: نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار ، المغرب نموذجا واشنطن 1997م
- 50- محمد صالح أيوب : الدور الاجتماعي والسياسي للشيخ عبدالحق السنوسي الترجي في داروداي - شاد اطروحة دكتوراه في علم الاجتماع منشورة المقدمة
- 51- صحيفة الرأي العام آيار مايو 2004م
- 52- رواية شفهية جمعت عام 2004م
- 53- تواترت في مدينة أبوزيد غرب كردفان عند بعض فقهاء المنطقة وخاصة أصحاب الطريقة التجانية
- 54- رواية شفهية جمعت عام 2004م
- 55- زكريا بشير إمام: القبيلة من منظور إسلامي في مجلة دراسات إفريقية العدد 14 يناير 1996م
- 56- رحمة بورقية ، مرجع سبق ذكره
- 57- رواية شفهية جمعت عام 2004م
- 58- Mac Michael , H.A. The Trives of Northern and Central Korofan – London 1967 P. 150
- 59- علي حمودة صالح ، الحوازمة ومكون الهوية السودانية ط I الخرطوم 2004م ص 80
- 60- Nadel , S.F. The Nuba London 1947
- 61- Stevenson R, C. Some Aspects of the spreal of Islam in Nuba Mountains S.N. R. Vol XLV.1963
- 62- Handerson , K.D.D. Anolte on the History of The Hamar Tribble 1932

- ابن عمر عمر عبيد الله نحو فلسفة جديدة لكتابة تاريخ إفريقيا
- 63- جوستاف ناختال: رحلة إلى وداي ودارفور تعريب سيد علي محمد ديدان ص 420
- 64- مايكل تيس: مغيب شمس السودان ترجمة وعرض موسى عبدالله حامد في صحيفة الأيام السودانية الحلقة رقم 14 العدد 7099 الخميس 2001/7/5م
- 65- محمد بابكر أحمد بابكر، التراث الكردفاني بين منطق الوثيقة وفاعلية الرواية ، ورقة غير منشورة 2006 ص ص 46 - 47
- 66- علي القريشي : الغرب ودراسة الآخر إفريقيا انموذجا سلسلة كتاب الأمة 96 رجب 1424 س 23 ص 100
- 67- المرجع نفسه
- 68- خطاب مرسل من عبدالحميد محمد زهرة (ملء جبل والى) إلى خوجلي فضل المولى 2005/6/19م وقد قام السلطان عبدالحميد بإحضار بعض الفقرا لنشر الإسلام 1950 - 8157 إسحاق عربي عبدالشافع ،والفكي عبدالله حماد.
- 69- أحمد المعتصم الشيخ: مملكة الأبواب المسيحية وزمن العنج ط 11 مركز الدراسات السودانية القاهرة 2002م ص 44
- 70- صلاح عمر الصادق :من إشكاليات التاريخ الإفريقي في دراسات إفريقية ع 26 س 16 ديسمبر 2001م ص ص 117 - 118
- 71- خالد عبدالله ميرغني: المفردة التراثية في التشكيل السوداني ، بحث تخرج غير منشور كلية الفنون جامعة السودان إشراف أحمد الطيب زين العابدين نوفمبر 1993م ص 15
- 72- أحمد المعتصم: مرجع سبق ذكره ص ص 44 - 45
- 73- امباي لو بن بشير: قضايا اللغة والدين في الأدب الإفريقي ط 11 مركز البحوث والدراسات الإفريقية الخرطوم 1995م ص 24
- 74- عبدالله علي إبراهيم حول إعادة كتابة التاريخ في مجلة البحوث التاريخية العدد الأول ليبيا يناير 1986م ص ص 33 - 34
- * تطورت منهجية دراسة التاريخ كثيرا فصارت تعنى بوضع الفرضيات واختبارها بدلا من السرد التفصيلي المجرد وفي اختيار الفرضيات يحاول الباحث تفسير ظاهرة ما (حدث) باستخدام ظاهرة أخرى تسمى نظرية: آدم الزين محمد دليل الطالب إلى منهجية البحث وكتابة الرسالة الجامعية في العلوم الاجتماعية ط 1 جامعة الخرطوم 1998م ص 30 خاصة وأن معظم البحث التاريخي المعاصر من إنشاء وتأسيس الباحث وإن كان البعض لا

ابن عمر عمر عبید الله
نحو فلسفة جديدة لكتابة تاريخ إفريقيا
یرى أهمية للفروض في البحث التاريخي " فاخر عاقل " أسس البحث العلمي في العلوم
السلوكية ط 3 دار العم للملايين بیروت 1988م ص ص 109 - 110 ص 179
** محمد هارون تيسا 1918 - 1995 ولد في أم روابة عام 1918م ودرس في خلوة الشيخ
أحمد البدوي بالرهة ودرس بالرهة عام 1936 وبخت الرضا 1938 وتقل في التعليم في
مختلف أرجاء السودان ورشح عام 1953 من قبل الحزب الوطني الاتحادي عن دائرة غرب
وشرق كردفان وفاز بنسبة عالية ويعد من الرعيل الأول للاستقلال وتقلد منصب الوكيل
الدائم لوزارة العدل .